الإنسان ومستقبله في خطاب نهاية التاريخ

بن علي محمد

أستاذ بالمركز الجامعي غليزان

مدخل:

فكرة نهاية التاريخ، ليست من قول فوكوياما وحده،فقد استوحاها من فيلسوفين سابقين هما،هيغل وماركس، فقد تصور هيغل وماركس بعده،أن التاريخ الإنساني منذ البدايات الأولى للمجتمعات الإنسانية إلى اليوم،سلسلة متماسكة من الوقائع والأحداث والتطورات،التي أدت إلى الانتقال من المجتمع العشائري،إلى المجتمع الحديث،لكن هيغل وماركس لم يتصورا التاريخ مستمرا في تطوراته وتناقضاته إلى مالا نهاية،بل قال كل منهما بنهاية التاريخ،عند الحالة التي تؤدي فيها تطوراته إلى وجود شكل من المجتمع،يلبي فيه الإنسان رغباته العميقة والأساسية.غير أن هيغل وماركس احتلفا،مع ذلك في تصور الشكل الذي يكون بالنسبة إليهما نهاية تاريخ تطور أشكال المجتمع،فقال ماركس، بأن هذا الشكل هو المجتمع الشيوعي،[1] وقال هيغل بأن الحرية هي المحرك الأساسي للتاريخ الإنساني. وأن هذا التاريخ اجتاز ثلاث مراحل للوصول إلى التحقق المطلق لفكرة الحرية،مرحلة ابتدائية شهدت استبداد الطاغية بالحكم (عصر الإمبراطوريات الشرقية الصينية والفارسية والفرعونية)،ومرحلة وسطى أضحى فيها بعض الناس أحرارا (عصر الدولة اليونانية الرومانية)،ومرحلة عليا غدت معها الحرية حقا عاما يتمتع به كل فرد (عصر الدولة المسيحية الجرمانية)،فالروح–كما رأى هيجل –شهدت اغترابا في المرحلتين الأوليتين، لكنها ما لبثت أن عادت في المرحلة الثالثة إلى ذاتها،حيث حققت الفلسفة–والفلسفة الهيجلية على وجه الخصوص–التعبير الكامل عن"روح المطلق"[2]. وعمل بعد ذلك الفيلسوف ألكسندر كوجيف على تعميق هذه الأطروحة من خلال إعادة قراءة وتأويل أعمال هيجل.يقول كوجيف بهذا الصدد: "لقد اعتقدت لزمن طويل أن القول بنهاية التاريخ ترهة وأكذوبة، ولكنني لما قلبت الأمر من جميع وجوهه، اتضح لي أن هذه الفكرة، استشراف ذكي رائع.وفي الوقت الذي اعتقد الدارسون،أن حكاية "نهاية التاريخ" قد دفنت مع صاحبها، قام المفكر الأمريكي–الياباني الأصل–فرانسيس فوكوياما، بإحياء الفكرة وتجديد القول في هذه المسألة في محاضرة له،نشرتها مجلة NATIONALINTEREST سنة 1989، حيث ربط فكرة نهاية التاريخ،بتحقق الديمقراطية الليبرالية،[3] لكن فوكوياما–ورغم تبنيه للفكرة–يختلف مع هيغل وماركس، فهو يأخذ عنهما فكرة نهاية التاريخ،ولكنه لا يتابعهما في الشكلين اللّذين تصورا بهما هذه النهاية."

إن نهاية التاريخ–بالنسبة لفوكوياما هي حقيقةً حول ما يحدث للمجتمعات وهي تتطور اقتصادياً،وتحقق مستويات معيشية أعلى، وتُطوِر مؤسسات سياسية جديدة"،[4] والشكل الأخير لتطور أشكال المجتمع في التاريخ، في نظر فوكوياما يعتمد على وجود طريقة واحدة فقط قابلة للحياة،وهي الديمقراطية الليبرالية التي تعني مجموعة من المؤسسات،ترتكز على الجانب الليبرالي، الذي يشير إلى وجود سلطة محدودة للدولة، حيث يُسمح للأفراد والمواطنين بممارسة قدر كبير من الحرية الشخصية... وقدرتهم على المشاركة في الحياة السياسية، وحرية التعبير وما إلى ذلك،والجانب الديمقراطي يعني أن الجانب المشروع في اختيار الحكومة هي الديمقراطية والخيار الديمقراطي، وهذا ما يوجد اليوم في أكبر دول العالم، في الولايات المتحدة وفي دول أوروبا الأساسية. [5] من هذه الفكرة سوف يكشف فوكوياما عن الغرض الأساسي من وراء فكرة نهاية التاريخ، إنها الفكرة التي تعبر عن الاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين شعوب العالم، شعوب ليبرالية وأخرى ما قبل ليبرالية إن صحّ هذا الوصف، من هذا المنطلق سينقسم العالم–في نظر فوكوياما– في المستقبل المرئي إلى شطر قد تخطى التاريخ وشطر لا يزال غارقا في التاريخ وفي عالم ما بعد التاريخ، وسيكون الاقتصاد هو المحور الرئيسي للتفاعل بين الدول، ففي الوقت الذي تتضاءل فيه أهمية القواعد العتيقة لسياسة القوة،سيكون ثمة تناقض كبير في المجال الاقتصادي، ولكنه محدود في المجال العسكري، وسيظل عالم ما بعد التاريخ (والمقصود هنا الدول الغربية ذات التوجه الليبرالي) مقسما إلى دول قومية، غير أن قومياته المستقلة ستكون قد تصالحت مع الليبرالية، وسيكون تعبيرها عن نفسها على نحو متزايد في مجال الحياة الخاصة وحدها،وفي هذه الأثناء ستكون العقلانية الاقتصادية سببا في تأكل مظاهر تقليدية عديدة للسيادة بقدر ما ستؤدي إلى توحيد الأسواق والإنتاج.[6] أما العالم التاريخي–والمقصود هنا الدول التي لا تتبنى النهج الليبرالي بغض النظر عن موقعها الجغرافي–، فسيبقى فريسة لمختلف الصراعات، الدينية والقومية والإيديولوجية،...وستظل الدولة القومية هي المحور الرئيسي

للهوية السياسية في العالم التاريخي،[7] سيقوم العالمان التاريخي وما بعد التاريخي جنبا إلى جنب ولكنهما منفصلان من وجوه عديدة،ولن يكون بينهما تفاعل إلا في حدود ضيقة، غير أنه ستكون ثمة محاور يصطدم العالمان حولها.أول هذه المحاور هو النفط،فإنتاج النفط لا يزال مركزا في العالم التاريخي، وهو حيوي بالنسبة للرخاء الاقتصادي لعالم ما بعد التاريخ، النفط لا يزال السلعة الوحيدة،التي يتركز إنتاجها بصورة كافية في منطقة معينة،[*] بحيث يمكن التلاعب في سوقه أو زعزعته لأسباب سياسية،وهو ما قد يؤدي على الفور إلى عواقب اقتصادية مدمرة، بالنسبة لعالم ما بعد التاريخ. [8]

والطريق الوحيد لدخول التاريخ الكوني–في نظر فوكوياما–هو الديمقراطية الليبرالية،وعلى هذا تصبح كل المراحل السابقة على الديمقراطية الليبرالية مراحل ما قبل التاريخية،وبوصول المجتمعات البشرية إلى هذه المرحلة من التاريخ الكوني ينتهي التاريخ.والتاريخ الأوروبي في نظر فوكوياما هو التاريخ الجوهري المستمر،بينما تواريخ العالم الآخر مجرد تواريخ سطحية عارضة يمكن القفز عليها،ومن ثم فإن نهاية التاريخ تتجسد في إخضاع الأوروبي–الغربي المنتصر–لغير الأوروبي كتاريخ متخلف.وهذا ما عبر عنه هيجل بوضوح قائلا:" ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من إفريقيا بأوربا،ولا بد بالفعل أن يرتبط بها... والواقع أن ما نفهمه من اسم إفريقيا،هو الروح غير المتطور الذي لا تاريخ له،والذي لا يزال منغلقا تماما،وفي حالة الطبيعة المحضة، والذي كان ينبغي أن يعرض هنا بوصفه واقعا على عتبة تاريخ العالم فحسب".ومن هذا المنطلق اتخذ فوكوياما من التاريخ موقعا متشائما في وجه المجتمعات غير الأوروبية،فعندما يقف المفكر الأوروبي في موقع مرجعي،غير الذي انطلق منه صاحب أطروحة نهاية التاريخ،فإنه يرى الواقع المعاصر لا من حيث نهايته للتاريخ،بل هو استمرار لتاريخ لم ينته بعد بالمعنى الذي يجري وراءه فوكوياما، لأن إنسان العالم الثالث ما تزال تكبله مشكلات عديدة تحول دون وجوده على خط السير نحو الليبرالية الديمقراطية،فبصرف النظر عما تشكله دول تاريخية معينة، من خطر على جيرانها سيكون لدول كثيرة من دول ما بعد التاريخ مصلحة في منع انتشار تكنولوجيات معينة إلى العالم التاريخي على أساس أن ذلك العالم هو أكثر عرضة لحدوث الصراعات،وتشمل هذه التكنولوجيات في الوقت الراهن الأسلحة النووية، والأسلحة الكيميائية والبيولوجية،غير أنه بالإمكان في المستقبل أن يتسع نطاق مسائل النظام العالمي فيشمل أنماط معينة من الشؤون البيئية التي يتهددها الانتشار غير المنظم للتكنولوجيا،فإن صح حديثنا عن اختلاف سلوك دول ما بعد التاريخ عن سلوك الدول التاريخية،فستكون لدى ديمقراطيات ما بعد التاريخ مصلحة مشتركة في حماية نفسها من الأخطار الخارجية،وفي نشر قضية الديمقراطية في الأقطار التي لا توجد بها الآن نظم ديمقراطية،[9] وتوحي الاختلافات بين الدول الديمقراطية والدول غير الديمقراطية وإمكانية قيام عملية تاريخية أوسع تؤدي إلى انتشار الديمقراطية الليبرالية في مختلف أنحاء بأن النزعة الأخلاقية التقليدية ،باهتمامها بحقوق الإنسان،والقيم الديمقراطية،قد انحرفت عن خطها الأصيل كأكبر دولة ديمقراطية ليبرالية في العالم ،لأنها أصبحت توظف مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لغرض التدخل في شؤون الغير،وهذا ينفي تماما زعم فوكوياما بأن السياسة الخارجية الأمريكية لم تنحرف تماما عن الصواب.[10]ويؤكد التحليل الفوكويامي على أن الديمقراطية الليبرالية (ومعها الاقتصاد الليبرالي) تشكل أفضل تلبية ممكنة لرغبة الاعتراف في شقيها (الإيزوتيميا[*] والميغالوتيميا ومن هذه الناحية يمكن ،أن تشكل نهاية التاريخ.

إن رغبة الاعتراف* وما يتولد عنها من صراعات ليست فقط حاسمة في تفسير الانتقال نحو الديمقراطية الليبرالية،بل أيضا في الحكم على نهاية التاريخ،أي في اعتبار الديمقراطية الليبرالية منتهى الفعل التاريخي فالسؤال الذي يطرح هنا،هل تلبي الدولة الديمقراطية الليبيرالية،مطالب الاعتراف لدى الجميع ؟ وهل هي حقا دولة شمولية منسجمة تؤمن وتحمي حقوق الجميع؟هل تستطيع الدولة الديمقراطية البيبرالية إشباع تيموس سكانها بشكل يرضي الجميع؟ [11]

يؤكد فوكوياما على أن الإيديولوجيا التي يمكن أن يقنع العالم كله بصلاحيتها،هي الديمقراطية الليبرالية،وهو يستند هنا على نتائج الثورتين الفرنسية والأمريكية،اللتين قامتا على مبادئ الحرية الفردية وهي مبادئ لا زالت تحافظ على قدرتها على الانطلاق في حيوية من جديد.[12]في نهاية التاريخ ليس ثمة منافسون إيديولوجيون للديمقراطية الليبرالية–هذا طبعا بعد ما تمّ القضاء على الإيديولوجيات المنافسة، والتي كان الناس في نظر فوكوياما يؤمنون بأفضليتها على النظام الليبرالي الاشتراكية،"وقد رفض الناس في الماضي هذه الديمقراطية الليبرالية، لاعتقادهم أن الملكية والأرستقراطية أو الحكومة الدينية والشمولية الشيوعية وسائر الإيديولوجيات التي اتفق أن آمنوا بها أفضل منها،أما الآن

فيبدو أن ثمة إنفاقا عاما،إلا في العالم الإسلامي على قبول مزاعم الديمقراطية الليبيرالية بأنها أكثر صور الحكم عقلانية،وهي صورة الدولة التي تحقق إلى أقصى حد ممكن إشباع كل من الرغبة العقلانية والاعتراف العقلاني".[13]

يؤكد " فوكوياما " أن المجتمعات الديمقراطية الليبيرالية،استطاعت بالفعل إرضاء جانب كبير من الإيزوتيميا،كما أنها ما زالت تعمل على إزالة الأسباب التقليدية للامساواة،غير أن ذلك لا يعني أن تحمل على عاتقها إلغاء كل مظاهر اللامساواة،فالعديد من تلك المظاهر يصعب حلها،خصوصا تلك المتعلقة بالطبيعة وليس بإرادة البشر،فالشابة الجميلة لها حظوظ أكبر للزواج،والأمي له حظوظ أقل في ممارسة عدة مهن،واستمرار هذه اللامساواة يجعل التوتر قائما بين مبدأي الديمقراطية الليبيرالية (الحرية والمساواة)، فمثلا اهتمام الدولة بتخصيص نسبة معينة من مناصب الشغل لصالح المكفوفين يتم في العديد من الأحيان على حساب غير المكفوفين،أما دولة الرعاية فهي تقوم على حساب حرية السوق، إلا أن ذلك لا يعني –حسب "فوكوياما"–إن الدولة الليبرالية الديمقراطية تقف مكتوفة الأيدي أما ذلك،فهي تحاول جاهدة تحقيق أكبر قدر من المساواة وتعويض المتضررين تعويض ماديا ومعنويا لكنها في أي حال من الأحوال لا يمكن أن تحقق المساواة بشكل كلي ونهائي لأنها ببساطة لاستطيع ذلك، [14] فإلغاء الميغالوتيميا بشكل كلي يؤدي حسب" فوكوياما" إلى الإنسان الأخير" إنسان بلا طموح، يكتفي بتلبية متطلباته من حاجات ورغبات،إنسان غير قادر على الإبداع، لأنه إنسان الوفرة والأمان الشخصي، وليس إنسان الحرية والخلق. يعني إلغاء الميغالوتيميا– الرغبة في التفوق على الآخرين–الحصول على مجتمع جامد بلا إبداع وبلا حماس مجتمع أخير مأهول بالإنسان الأخير.[15] إن المجتمع الديمقراطي الليبرالي المدافع عن المساواة،لا يمكنه في أي حال من الأحوال،أن يلغي الميغالوتيميا فهي تظل حاضرة،وفي حدود معينة ضرورية للحياة،هنا يميز"فوكوياما"بين وجهين الميغالوتيميا،وجه إيجابي وأخر سلبي. الميغالوتيميا السلبية هي التي تؤدي إلى الاستبداد السياسي والطغيان.أما الميغالوتيميا الايجابية فهي التي تؤدي إلى المنافسة وتحفز على الإبداع والابتكار،إذا المهمة المطروحة أمام الديمقراطية الليبيرالية ليست إلغاء الميغالوتيميا، بل تهذيبها عبر إيجاد مخارج يذكر"فوكوياما" المبادرة والعمل (تحقيق التفوق على صعيد العمل والإنتاج).ورغم ذلك،تظل حسب–فوكوياما إمكانية انفجار الميغالوتيميا بشكل عنيف ممكنة دوما،لأنها خاصية مغروسة في البشر إذا لم يجدوا ما يقاتلون من أجله فإنهم سوف يقاتلون بسب الضجر،إذ ليس بوسعهم تخيل أنفسهم في عالم بدون صراعات وإذا كان الجزء الأكبر من العالم،الذي يعيشون فيه يتميز بديمقراطيات ليبرالية مزدهرة وسليمة فإنهم عندئذ سيقاتلون ضد هذا السلام وذلك الازدهار وضد الديمقراطية. وهذا ما ينطبق اليوم وصورة فعلية على الولايات المتحدة التي لا تستطيع أن تبقى خارج دائرة النزاعات لإرضاء لرغبتها في التفوق وإثبات الذات إن الديمقراطية الليبيرالية استطاعت حسب فوكوياما، أن تشبع جانبا كبيرا من الرغبة في المساواة(وهنا يمكن الحديث على السكان السود)،لكن تبقى دائما مساواة نسبية دون الأمل في تحقيق الإيزوتيميا المطلقة، كما استطاعت أن ترويض الميغالوتيميا وتهذيبها بشكل كبير. [16] المشكل فيما نرى ليس ما تطرحه الميغالوتيميا على المستوى الفردي، بل خطرها يتعاظم عندما تنتقل إلى مستوى الدولة،وما نراه اليوم على مستوى السياسة الأمريكية يوضح بدون شك أن رغبة التفوق على الآخرين قد تجاوزت كل الحدود وانقلب إلى طغيان.

لكن ما لهدف من وراء المناداة بديمقراطية ليبرالية؟

إن القصد من وراء تأسيس ديمقراطية ليبرالية،هو أن يكون عملا سياسيا عقلانيا بالدرجة القصوى،يتداول بمقتضاه أفراد المجتمع حول طبيعة الدستور ومجموعة القوانين الأساسية التي ستحكم حياتهم العامة،لكن لماذا لم تعم الديمقراطية الليبيرالية العالم كله؟

السبب في نظر فوكوياما يعود لقصور التجاوب بين الشعوب والدول، فالدول تشكيلات سياسية ذات هدف، أما الشعوب فجماعات معنوية سبقت الدول في الظهور،ومعنى ذلك أن الشعوب هي جماعات لها عقائد مشتركة خاصة بالخير والشر وطبيعة الإلهي والدنيوي، وهي عقائد غرست عن عمد في الماضي البعيد،وأضحت الآن إلى حد كبير مجرد تراث،أو كما يقول نيتشه:" كل شعب له لغته الخاصة عن الخير والشر قد اخترع لغته من عاداته وحقوقه"،[17] التي لا يعكسها الدستور والقوانين فحسب، بل تنعكس كذلك في العائلة،والدين والبناء الطبقي، والعادات اليومية وأساليب الحياة المحترمة ، ميدان الدول إذن هو السياسة،ميدان الاختيار الواعي ذاتيا لنمط الحكم السليم في حين نجد ميدان الشعوب هو فيما دون السياسة،أنه ميدان الثقافة والمجتمع الذي نادر ما تكون قواعده جلية صريحة أو مستوعبة عن وعي ذاتي حتى من جانب المساهمين فيه،وحين نسمع توكفيل يتحدث عن نظام القيود والتوازنات في الدستور الأمريكي،أو عن توزيع المسؤوليات بين

الحكومات الفيديرالية وحكومات الولايات،فإنما هو يتحدث عن الدول،أما حين وصف روحانية الأمريكيين التي تتسم أحيانا بالهوس والتعصب، أو عن غرامهم بالمساواة، أو عن تعلقهم بالعلوم العملية دون النظرية فإنما هو يصفهم كشعب، والدول تفرض نفسها على الشعوب من القمة،وهي أحيانا تشكل الشعوب...كمبادئ الحرية والمساواة التي شكلت الوعي الديمقراطي لدى الشعوب المهاجرة العديدة التي تتكون منها الولايات المتحدة الأمريكية غير أن علاقة الدول بشعوبها في الكثير من الحالات هي علاقة متوترة، بل وقد يقال أحيانا أنها في حالة حرب مع شعوبها،كما في حالة الشيوعيين الروس والصينيين حين سعوا إلى هداية شعبيهما إلى المثل الماركسية ولذا فإن نجاح الديمقراطية الليبرالية واستقرارها لا يتوقفان أبدأ على مجرد التطبيق الآلي لمجموعة معينة من المبادئ العامة والقوانين، وإنما هما في حاجة إلى درجة من التوافق بين الشعوب والدول. [18]

لكن ما هي العقبات التي تحول دون تأسيس الديمقراطيات الليبرالية المستقرة في نظر فوكوياما؟

يمكن تصنيف تلك العناصر على النحو التالي:

أ)– عناصر تتعلق بدرجة وطبيعة الوعي القومي والعرقي والجنسي في دولة من الدول ،فالديمقراطية لا يمكن أن تنشأ في دولة تكون فيها النزعة الوطنية أو العرقية مبالغا فيها لدى أفراد الجماعات المكونة لهذه الدولة.

ب)– العقبة الثقافية الأخرى في سبيل الديمقراطية هي الدين،وكما في حالة النزعة الوطنية ليس ثمة صراع بالضرورة بين الدين والديمقراطية الليبرالية،إلا حين يكون الدين ضد التسامح والمساواة إن الدين –في نظر فوكوياما– لم يخلق المجتمعات الحرة،فالمسيحية بمعنى من المعاني، كان لزاما أن تلغي نفسها عن طريق صبغ أهدافها بالصبغة العلمانية قبل ظهور الليبرالية...وذلك حين جعلت الدين شأنا خاصا بين المسيحي وخالقه،فاستأصلت الحاجة إلى طبقة مستقلة من القس وإلى التدخل الديني في السياسة، [19]وأما اليهودية الأورثودوكسية والإسلام الأصولي فنراهما على العكس من ذلك،فهما ديانتان شموليتان تسعيان إلى تنظيم كل مظاهر الحياة البشرية،عامة كانت أو خاصة،بما في ذلك المجال السياسي. [20] قد تتفق هاتان الديانتان مع الديمقراطية، فالإسلام بالذات لا يقل عن المسيحية تمسكا بمبدأ المساواة بين الناس عامة ، غير أنه من الصعب جدا أن نوفق بين هاتين الديانتين وبين الليبرالية والاعتراف بالحقوق العامة،خاصة حرية الضمير والدين وقد لا يكون من دواعي الدهشة أن تكون تركيا هي الديمقراطية الليبرالية الوحيدة في العالم الإسلامي المعاصر حيث إنها الدولة الوحيدة التي طرحت التراث الإسلامي جانبا في صراحة تامة، واختارت إقامة مجتمع علماني..من هنا تصبح العلمنة هي الشرط الأساسي لدخول دائرة الدول الليبرالية. وفوكوياما رغم اعترافه بأن الإسلام يشكل إيديولوجيا متسقة ومتماسكة–له معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية–شأنه الييبرالية، وأن له جاذبية يمكن أن تكون عالمية داعيا إليه البشر كافة باعتبارهم بشر لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة،وقد تمكن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديمقراطية الييبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وشكل بذلك خطر كبيرا على الممارسات الييبرالية حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة. [21] لكن ورغم هذه المميزات التي يتميز بها الإسلام إلا هذا الدين–في نظر فوكوياما– لا يكاد يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة ،لهذا يرى فوكوياما أن الإسلام ليس بوسعه تحدي الديمقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري، بل إنه قد يبدو أن العالم الإسلامي أشد عرضه للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس، حيث أن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها أنصار عديدين أقوياء لها من بين المسلمين على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين، [22] والواقع أن أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية. تبقى هذه العبارات بعيدة كل البعد عن التناول الإبستيمي لإشكالية العلاقة بين الإسلام والليبرالية، بل هي أطروحات تعمل على خلق العدو الوهمي أرضاء لنزعة تيموسية مدمرة.وهذا كله لا يخرج عن دائرة تفكير المحافظين الجدد .

ج)– القيد الثالث على ظهور ديمقراطية مستقرة يتصل بوجود بنية اجتماعية تتمتع بدرجة عالية من اللامساواة.

د)– الاعتبار الحضاري الأخير الذي يؤثر في إمكان إقامة ديمقراطية راسخة يتصل بقدر المجتمع على أن يخلق بنفسه مجتمعا مدنيا سليما... ذلك أن الديمقراطية ليست سوى حكم ذاتي،فإن كان الناس قادرين على حكم أنفسهم في مدنهم أو تنظيماتهم أو نقاباتهم المهنية أو جامعاتهم زاد احتمال نجاحهم في حكمهم لأنفسهم على الصعيد القومي. [23]

إن المسار التاريخي الذي انتهجته العناصر المختلفة المؤلفة للديمقراطية الليبرالية، يبين- في نظر فوكوياما- أن أقوى الديمقراطيات الليبرالية المعاصرة (كإنجلترا والولايات المتحدة) كانت الليبرالية فيها قد سبقت الديمقراطية، أو كانت الحرية فيها قد سبقت المساواة، بمعنى أن الحقوق الليبرالية في حرية التعبير وحرية الاجتماع والمساهمة السياسية في الحكم،كانت تمارسها صفوة صغيرة قوامها الذكور والبيض والملاك الزراعيون، قبل أن تعم قطاعات أخرى من السكان.(24) لهذا يرى فوكوياما أنه ينبغي أن تنشأ الديمقراطية عن قرار سياسي معتمد بإقامة الديمقراطية ويبقى مجال السياسة مستقلا عن المجال الحضاري،ويظل له وقاره الخاص باعتباره نقطة التقاء الرغبة والثيموس والعقل ولا يمكن للديمقراطية الليبرالية المستقرة أن تظهر إلى حيز الوجود دون سياسة حكماء أكفاء يفهمون فن السياسة، ويستطيعون تحويل الميول الكامنة لدى الشعوب إلى مؤسسات سياسية صامدة،(25) لذلك لا يمكن النظر للعناصر الثقافية باعتبارها ظروفا ضرورية لإقامة الديمقراطية.

لهذا نقول إن التاريخ منذ أن بدأ مع "الإنسان الأول" إلى أن ينتهي مع الإنسان الأخير (نهاية كغاية وليس كحدث) باعثه المعلل هو التيموس أي اللاّعقل. ومعنى ذلك، حسب التحليل السابق، أن الوعي التاريخي يتضاءل ما دام يحركه اللاشعور أو التيموس ومن منظور فلسفة التاريخ فهي فكرة تغيّب العقل والوعي، ثم هي تجعل غاية التاريخ مرتبطة بتحقيق شهوة عقيمة تمليها القوة الغضبية في الإنسان.إن نهاية التاريخ مؤسسة على اعتقاد غربي،وصله فرانسوا شاتليه في العبارة التالية:"إن نهاية التاريخ هي نهاية الآخر الذي يقاتل الأوربي".(26) وبالتالي فنحن أمام اغتصاب جديد لمفاهيم التاريخ، وندخل في النزعة التأويلية المبنية على الايدولوجيا الانقلابية ،ولعل هذا ما نلتمسه في قول مطاع الصفدي :" واضح أننا أمام اغتصاب جديد لمفهوم التاريخ.وحركته ونهايته،يأخذ شكل التأويل، ليبني مشروعا إيديولوجيا في عصر تم الاتفاق على وصفه بأنه عصر انهيار الإيديولوجيات"(27). إن محاولة تهيئ العالم وتبيئته لقبول وهم انتصار الغرب،لا يخرج عن محاولة اعتباطية للإنسان الغربي من أجل انتزاع التفوق الوهمي من الآخر.إن الآخر حتى في حالة انحطاطه سيتمسك باعتقاد كونه هو ذلك الرجل الأخير.

خاتمة:

خلاصة القول أن:أطروحة فوكوياما تنطلق من إيديولوجية،تبناها النظام الدولي الجديد في ظروف جديدة،حتمت عليه الدخول في ترتيبات جديدة، بعد انهيار المعسكر الاشتراكي،ودخول العالم منعطفا جديدا.ومعلوم أن كل نظام جديد يمثل منظومة فكرية متكاملة،لا بد أن يستند على رؤية معرفية وغطاء فكري يبرراه ويروجان لديمومته،وهذا ما يفسر بروز مجموعة من النظريات صاحبت هذا التحول،ومن أكثرها شيوعا نظرية صموئيل هانتجتون "صدام الحضارات"، ونظرية ما بعد الحداثة، وكلها نظريات روجت لفكرة الليبرالية الديمقراطية وحتمية سيادتها في النظام الدولي الجديد.(28) ولم تخرج نظرية فوكوياما عن هذا المسار، إذ اتخذت على عاتقها مسؤولية الترويج لفكرة الإجماع العالمي حول مسألة الديمقراطية،والالتفاف حول النظام الليبرالي كحل نهائي تنشده الإنسانية..لينتهي معها التاريخ نهاية كغاية وليس كحدث.بهذا تتحول نظرية فوكوياما من نظرية فلسفية إلى خطاب سياسي إيديولوجي، يبشر بأبدية الرأسمالية في ثوبها الجديد (الليبرالية)، وانتفاء إمكانية مناهضتها،بسبب قوة المنتصر وديمومته،وهزمه النهائي لنقيضه، وبالتالي فإن نهاية التاريخ تعني بالضرورة نهاية السياسة كما تعني نهاية الإيديولوجية،لأن التناقض لم يصبح حقيقة قائمة.(29) هكذا وما دام التحليل العلمي،لأي منتج ثقافي لا يتم بمعزل عن بنية الواقع الذي أفرزه،نقول إن فكرة نهاية التاريخ،التي طرحها فوكوياما في سوق الثقافة لم تكن سوى غطاء فكري يجسد انتصار قيم النظام العالمي الجديد،الذي بدت ملامحه تتشكل منذ العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

قائمة مراجع البحث:

1)محمد وقيدي ،البعد الديمقراطي،دار الطليعة،بيروت ، لبنان،ط1997،1.

2)محمد الشيخ و ياسر الطائر،مقاربات في الحداثة و ما بعد الحداثة،دار الطليعة،بيروت،لبنان،ط1966،1.

3) نقلا عن : حوار فرانسيس فوكوياما مع قناة الجزيرة في برنامج من واشنطن2004/01/08

4) فرانسيس فوكوياما،نهاية التاريخ،تر،حسين احمد أمين ،مركز الأهرام للترجمة و النشر،القاهرة،ط1993،1.

5) زهير اليعكوبي،نحو سيكو–سياسية تموسية،مجلة الفكر العربي المعاصر،مركز الإنماء القومي،بيروت باريس، ع2009/148،149.

6)نقلا عن:عبد القادر بوعرفة الأساس الأسطوري لنهاية التاريخ نقلا عن: http://insaniyat.revues.org/7989#ftn14

7) إبراهيم القادري بوتشيش، حول مسألة نهاية التاريخ: تأملات في أطروحة فوكوياما:نقلا عن: www.aljabriabed.net/n44_02butchich.htm

الهوامش:

1. محمد وقيدي ،البعد الديمقراطي،دار الطليعة،بيروت ، لبنان،ط1997،1،ص62
2. محمد الشيخ و ياسر الطائر، مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة،دار الطليعة،بيروت، لبنان، ط1 ،1966، ص 60
3. المرجع نفسه،ص 61
4. محمد وقيدي ،البعد الديمقراطي، مرجع سابق،ص62
5. نقلا عن : حوار فرانسيس فوكوياما مع قناة الجزيرة في برنامج من واشنطن2004/01/08
6. فرانسيس فوكوياما،نهاية التاريخ،تر،حسين احمد أمين ،مركز الأهرام للترجمة و النشر،القاهرة، ط1، 1993، ص242

* الإشارة هنا بالتحديد لمنطقة الخليج والخوف من أن يتخذ النفط كسلاح ضد أمريكا وحلفائها كما كان الشأن في الحروب العربية ضد الكيان الصهيوني أين استعمل النفط كأداة ضغط .

7. المرجع و الصفحة نفسها.
8. المرجع نفسه،،ص243
9. المرجع نفسه،ص244
10. المرجع نفسه،ص245

* زهير اليعكوبي،نحو سيكو–سياسية تموسية،مجلة الفكر العربي المعاصر،مركز الإنماء القومي،بيروت باريس،ع2009/148،149،ص 58

* الميغالوتيميا: تعني الرغبة في التفوق على الآخرين):كلمة ذات أصول إغريقية تعني تضخم الذات. الإيزوتيميا:تعني رغبة الإنسان في أن يعترف به مساويا للأخرين .فرانسيس فوكوياما،نهاية التاريخ،مرجع سابق،ص166

11. فرانسيس فوكوياما،نهاية التاريخ،مرجع سابق،ص54
12. المرجع نفسه،ص189
13. زهير اليعكوبي،مرجع سابق،ص59
14. زهير اليعكوبي،مرجع سابق،ص59
15. زهير اليعكوبي،مرجع سابق،ص59
16. نقلا عن: فرانسيس فوكوياما،نهاية التاريخ،مرجع سابق،ص190
17. المرجع نفسه،ص192
18. المرجع نفسه،ص193
19. المرجع نفسه.،ص194
20. المرجع نفسه،ص56
21. المرجع نفسه،ص54
22. المرجع نفسه.،ص194
23. المرجع و المكان نفسه.
24. المرجع و المكان نفسه.
25. نقلا عن:عبد القادر بوعرفة الأساس الأسطوري لنهاية التاريخ نقلا عن: http://insaniyat.revues.org/7989#ftn14
26. المرجع و المكان نفسه
27. إبراهيم القادري بوتشيش، حول مسألة نهاية التاريخ: تأملات في أطروحة فوكوياما:نقلا عن: www.aljabriabed.net/n44_02butchich.htm
28. المرجع و المكان نفسه.